مقابلة أدبية مع :

محمود حسن اسماعيل

يملك محمود حسن اسماعيل طاقة شعرية متقدة ، لا تكف عن العطاء . بدأ حياته الشعرية بديوان « أغاني الكوخ » الذي صدر سنة ١٩٣٤ ، وتحددت به هموم هذا الشاعر ، الذي انتعشت شاعريته تحت تأثير البيئة الريفية التي نشأ فيها ، وبؤس الفلاح في النظام الاقطاعي . ولا تزال هذه البيئة ، التي منحته أبرز مكوناته ، المصدر الرئيسي الذي ينهل منه أشعاره ، الى جانب استبطانه لذاته المفلة ، طلبا للانطلاق ، وتعبيره عن القضايا القومية وانطلاقنا الثوري .

واسم محمود حسن يرتبط في تاريخنا الشعري بمجموعة من القيم الفكرية والفنية المتقدمة ، كان لها تأثير عميق في معظم الشعراء الذين عاصروه أو أتوا بعده . وقد حقق شهرة واسعة في أرجاء العالم العربي ، ورددت الجماهير — في فترات عديدة — كثيرا من أشعاره المغناة .

وهو شاعر واضح الشخصية ، له قاموس شعري خاص قوي الايقاع ، واستخدامات لغوية خاصة عمادها التشخيص Personification ورؤية خاصة للحياة والكون والنفس والحرية ، تلتزم دائما بنفس المحاور وتتردد فيها أصداء من الفلسفات القديمة ، اليونانية والعربية والفارسية ، وهو ما لم يشر اليه أحد من نقاده ، فضلا عن المامه بالمعارف الحديثة . الا ان أدواته الفنية تبدو دائما أقوى من أفكاره المطروحة ، وأقوى من وعيه بالعصر . وقد نال سنة ١٩٦٥ جائزة الدولة التشجيعية عن ديوان « قاب قوسين » (مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٦٤) .

وتنتمي أشعار محمود حسن اسماعيل المبكرة الى المدرسة الرومانسية ، التي عرفت بوجدانياتها وعاطفيتها وتهويماتها وزركشتها اللغوية . وعلى الرغم من ان هذه الخصائص لا تزال تخامر أشعاره ، الا انه استطاع فيما بعد أن يشق طريقا مختلفا ، يبتعد به عن الرومانسية ، ويقترب من الاتجاه الواقعي الصلب الذي ارتبط بثورة يوليو (تموز) ١٩٥٢ . وهو اتجاه اتسعت آفاقه — مع تقدم الثورة — ليشمل التعبير عن حركة التحرير في العالم العربي والعالم الثالث .

ويعد محمود حسن اسماعيل بحق من أوائل الذين خرجوا على قواعد العروض العربي القديم ، وجددوا في شكل القصيدة وأساليب التعبير ، استجابة لخياله المجنح ، وجدة موضوعاته ، وصدق أحاسيسه الانسانية .

وفي هذا اللقاء يتحدث محمود حسن اسماعيل عن تجربته الشعرية وأفكاره . . .

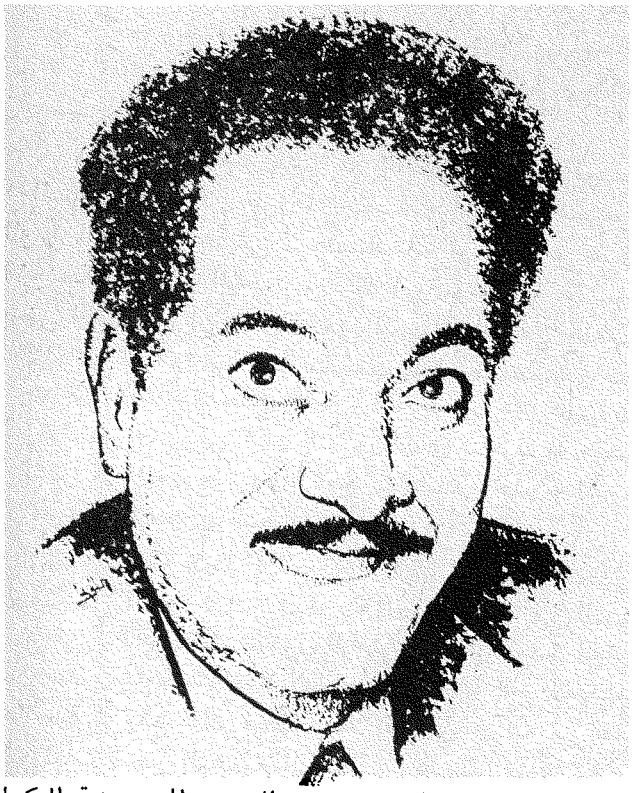

● أرجو أن تحدث القراء عن نشأتك ، والمكونات التي حدت بك الى الشعر ، وحددت اتجاهك الفني ؟

— نشأت في قرية صغيرة في أعماق الصعيد اسمها النخيلة ، ولها من اسمها نصيب ، فيكثر فيها النخيل والبساتين المطلة على حافة نهر النيل من الجانب الغربي. لم أولد في بيت علم ، ولم أواجه في طفولتي مكتبة تشكل ثقافة مبكرة تعين على أي معرفة . وأول ما سمعت من اللغة العربية لغة القرآن ، وقد حفظته في سن التاسعة. وأول ما سمعت من الشعر الانغام الجنائزية التي كان يتصايح بها المنشدون أمام النعوش . وكنت أضيق بها وأفزع منها . ولهذا هربت الى معيشة كاملة في الحقل ، حيث سمعت من انغام الطبيعة لغة الطيور التي كانت أول ايقاع موسيقي لم تتدخل فيه صنعة الانسان ، يحرك نفسي الى الاصغاء لعالم الطبيعة ، بكل ما فيه حتى الجذوع الصامتة ، والليل الاخرس ، والوجوه المستعبدة البكماء التي تتحرك حولي تحت وطأة القهر والرق والحرمان والطمأنينة الزائفة وبؤس العيش ، وذلك في العشرينات الاولى من هذا القرن . وقد طال مقامي كجزء من الطبيعة ، مع شواريفها ، وسواقيها ، وفؤوسها ، ومناجلها . وأذكر اني كنت أغرس البذور بيدي في تراب الحقل ، وأعيش بجوارها أتابع نماءها ، حتى تظهر وبستوي عودها ، وتتهيأ للحصاد . وكنت أشارك في حصادها ، وأزاملها حتى تعود الى البيت غلة أو ثمرة . ولم يكن هذا تجربة واحدة في عام ، وانما كانت عشرات التجارب على مدى عدة سنوات ، عايشت فيها زراعة القمح والذرة والكروم، ولا أزال أذكر الغناء البشري الذائب من حناجر الكادحين في مواسم الزرع والحصاد . وكانت كل هذه العوالم أشبه بمرجل انصهرت في داخله كل العناصر الترابية التي انفصلت عنها ، باضاءة الشعر ، عندما بدأت أتنفس به ، عقب فراقي لعالم القرية والطبيعة الى عالم المدينة . وكان من حصاده الاول ديوان « أغاني الكوخ » الذي كتبت قصائده عام ١٩٣٣ وطبعت عام ١٩٣٤ ، ولم تكن قصائد هذا الديوان هي كل ما كتبته ، بل اني عثرت على قصائد شتى في هذه المرحلة لم يحوها الديوان ، ولم تنشر حتى الآن .

● كيف تتم في نفسك عملية الابداع الفني ؟

— تتكون القصيدة في نفسي دون أن أعلم . والقصيدة هنا هي النغم الانساني الحقيقي الذي يخامر

وجود الشاعر النفسي ، ثم ينطلق منه في لحظة ما ، مكونا تكوينا كامل الرؤيا من كافة الابعاد الفنية . وهنا يعني ان النغم يعيش في أعماق النفس عمرا لا حد له ، ولا أعرف مبتداه . وانسكاب القصيدة على الورقة هو الذي يمثل نهاية جزء منها ، أو المرحلة التي اكتمل تخليقها في الوجدان العميق . ولهذا تندفع الحياة الشعرية للتجربة في فترة زمنية واحدة متواصلة ، وانقطاعها الزمني يمثل انقطاعا موازيا تماما في كيان القصيدة .

ولهذا توجد لدى عديد من القصائد سميتها فعلا « المبتورات » ، لان ظروفا زمنية حالت دون استمرار الزمن الداخلي الحقيقي لايجادها ، أو نقلها من عالم الاجنحة الى عالم الوجود . ذلك اني مؤمن بما يقوله بعض النقاد من ان مفارقة جو القصيدة الخاص اثناء استلهامها للبحث عن كلمة منمقة او عن تعبير يرضى الجماهير او القراء بصفة عامة ، انما يصور هذا تغيرا في كيان التجربة ، وفي كيان التصور الذي تتحرك به من الداخل الى الخارج ، وهذا يفقدها أصالة وحدوية الفن ، أو الوجود الشعري للتجربة .

وربما يعن لاحد ان يسأل : كيف اذن ترى الحول الزمني الذي كانت تكتب به الحوليات في الشعر الجاهلي ؟ فأقول : ان الحول الزمني في ذلك العصر القديم كان يمثل مناخا متواصلا لا انفصام فيه لجو القصيدة الواحدة . ومع ذلك فيظهر فعلا في اي حولية من هذه الحوليات عنصر التجميع الزمني . وهذا يشكل حيرة شديدة في فهم كثير من حوليات الشعر القديم لدى كثير من النقاد الذين تتشتت امامهم الرؤية ، فيظنون القصيدة فاقدة للوحدة الشعرية . غير انه على الرغم من هذا التجميع الزمني فانها تتحرك من خلال رؤية واحدة لكل عناصر القصيدة ، الامر الذي يوهم بعض النقاد بفقدان وحدة القصيدة .

ومن هذا التصور نفسه هوجم كثير من شعراء العربية الكبار بأن شعرهم على علو كعبه في الفن الشعري فاقد للوحدة العضوية على حد المصطلح الحديث ، في حين ان النظر الى القصيدة بعمق أبعد من هذه المقاييس ينتهي بنا الى تعانق المناخ الزمني مع المناخ الفني في هيكل القصيدة الواحدة .

● ما هي القيم الفكرية الجديدة التي حواها ديوانك الاول وظلت مرتسمة في أشعارك ؟

ـ كان ديوان « أغاني الكوخ » يمثل احساسي بالرفض لعالم القرية الذي يخيم عليه الرق والمسكنة والتجبر والمغايرة الشنيعة بين انسان وآخر في كل شيء ، والتناقض بين طرفي الانسان : انسان في الهلاك من الذل والحرمان ، والآخر يكاد يهلك من البطن والترف والاستعلاء الجائر .

ومن خلال هذا المناخ تولدت أحاسيسي الاولى نحو فلسفة الوجود ، وموقفي الملتزم بطبيعته بفلسفتي الخاصة . ترفض هذه الفلسفة أول ما ترفض رق الوجود ، والمسافات المضروبة بين الناس بدون عدل ، وتقدس الحرية التي لا تشكل قيدا على نفسها .

● ما حوافز القلق الذي تنفجر به أشعارك ؟

ـ هناك ضراوة من العداء بيني وبين نفسي ، بيني كانسان وبيني كشاعر ، لان الشاعر فيما أتصور هو الاصل ، والانسان هو المضاف اليه بشريا . وقد اوقعني هذا المضاف في كل ما من شأنه أن يشكل عقبة أمام تيار الشعر وتدفقه ، الذي كنت أتمنى الا يرتفع اي سد او اي حاجز امام انهماره من نفسي في اي لحظة .

وهذا يشكل جمرة القلق الدائمة في نفسي ، والتي تطرح وهجها على وجودي كله ، سواء كان وجود شاعر او وجود انسان .

وبالرغم من احساسي الواضح بهذا الصراع فانني لم أضق به ذرعا ، بل احتملته بشعور خفي أتمنى فيه أن ينتصر الشاعر على الانسان كجسد وموجود متحرك . الخير والشر .

● ما هو تصورك النظري للصراع بين الخير والشر الذي تتعدد صوره الرامزة في انتاجك الشعري ؟

ـ طرح الانسان على طريق الوجود وهو في أشد حالات الظمأ الى تحديد المفاهيم التي تشكل له الخير والشر ، فتخلقت حياته من تجاربه الخاصة ، دون استهداء بجو خارجي لا من السماء ولا من الارض . وبعد مسيرة طويلة تدخلت السماء التي رفضت وجود الانسان فيها في صب أساليب جديدة تعينه على تحديد الخير والشر . ومن هنا نشأ الصراع بين مفاهيمه الذاتية قبل التحام السماء بالارض ، وبين الكلمة الجديدة التي سيقت اليه لتعينه على تنظيم مسيرته .

● أين يقف الشاعر ازاء هذا الصراع ؟

ـ الشاعر هو الذي يحمل البعد السابع من النفس ، بمعنى ان هناك بعدا أبعد من أبعاد الحواس الخمس ، التي تتعامل مع الوجود تعاملا مباشرا ، وأيضا ابعد من الحاسة السادسة التي اضافها علم النفس الحديث في تفسيره للنفس البشرية أمام معطيات الكون .

هذا البعد هو الذي تترسب فيه آثار المعارك والصراعات بين الحواس الخمس والحاسة السادسة التي مدها علماء النفس ، لان البعد السابع يتلقى آثار هذا الصراع فقط ، دون ان يحرص على الافضاء بها أو التعبير عنها ، وانما تأتي فجاءة كلما امتلأ وضاق كيانه عن حمل مذخوراته من كافة ألوان التجاري او العواطف التي شكلتها الحواس الخمس أو تصورتها الحاسة السادسة .

في البعد السابع تختزن التجارب الانسانية الزائدة في وجود الانسان ، وتختلط وتتصارع وتتعانق وتذوب وتأخذ شكلا جديدا ، يختلف كل الاختلاف عن أصولها الاولى . وحين تمتلىء تفور كما يفور البركان الذي ضاق بمحتواه .

أجرى المقابلة

القاهرة **نبيل فرج**